حكمة الرب
في خلق القمر

تأليف الشيخ عبدالله بن زيد آل محمود

رئيس المحاكم الشرعية بقطر

بسم الله الرحمن الرحيم

حكمة الرب في خلق القمر

الحمد لله الذي خلق الانسان وعلمه البيان وجمله بالعقل وشرفه بالايمان وفضله بالعلم على سائر الحيوان ، واشهد ان لا إله الا الله وحــده لا شريك له شهادة مبرأَة من الشرك والشكوك والاوهام ، واشهد ان محمداً عبده ورسوله سيد الانام .

اما بعد ـ فقد قال الله تعالى « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك الا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون » .

فأَخبر الله سبحانه انه جعل الشمس ضياء تضي للناس من طلوعها الى غروبها ويترتب على انتشار ضيائها المصالح العديدة والحكم المفيدة من صحة الابدان وغرائس الاشجار ونضج الثمار وتسخين البحار واجراء الانهار وسائر ما يترتب عليها من المنافع الكبار ورفع المضار تشع بضيائها على اقوام كل النهار ثم تغرب عنهم وتطلع على آخرين غيرهم بسير متقن مسخرة له لا تتجاوزه ولا تقصر عنه وطريق سيرها

في الصيف غير طريقه في الشتاء لاختلاف الفصول من صيف الى شتاء ثم خريف وربيع (صنع الله الذي اتقن كل شيء).

ثم قال « والقمر نوراً » أي جعل القمر نوراً يضيء للناس في ليلهم وفي سيرهم وسمرهم ويبصرون بنوره ما يعرض لهم وقدره منازل فهو يبدو حين يستهل كالخيط الدقيق ثم يتزايد جرمه ونوره بانتقاله من منزلة الى منزلة حتى ينتهي الى حالة ابداره أي كماله وتمامه وفي حالة تزايده من طلوعه الى ابداره والبحر يمد بالزيادة تبعاً لزيادة القمر الى ان ينتصف الشهر فعند ذلك يأخذ المد غايتـــه ويبلغ من الاضطراب والطفور نهايته فيعظم هيجانه وتشتد امواجه .

فاذا نقص القمر بعد منتصف الشهر بدأ النقص في مد البحر بحسبه وهذه من الحقائق التي هي بتقدير الخالق (فتبارك الله احسن الخالقين) .

وللقمر ثمانية وعشرين منزلة ينزل كل ليلة منها منزلة غير منزلته الاولى سميت بأسماء النجوم المجاورة لها وهي : الشرطان ، والبطين ، والثريا ، والدبران ، والهقعة ، والهنعة والذراع ، والنثرة ، والطرف ، والجبهة ، والزبرة ، والصرفة ، والعواء ، والسماك الاعزل ، والغفر ، والزبانا ، والاكليل ،

والقلب ، والشولة ، والنعايم ، والبلده ، وسعد الذابح ، وسعد بلع ، وسعد الاخبية ، وسعد السعود ، والفرغ المقدم ، والفرغ المؤخر ، والرشا ، ثم يختفي غالباً ليلة او ليلتين وتسمى السرار والمحاق .

رتب الله القمر على هذه المنازل لمصلحة الناس وهي ما عناه بقوله «وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب» وبعد المنزلة عن المنزلة مسافة بعيدة لا يعلم قدر مساحتها ولا بعد مسافتها الا الله عز وجل .

اضف الى ذلك ان الهلال اذا استهل ثم ابدر فإنه يستهل ويبدر على الدنيا أي المعمورة كلها في وقت واحد ، واذا غاب فإنه يغيب عن الدنيا كلها باستثناء كون بعض البلدان يرونه اول يوم وآخرون لا يرونه فان هذا يرجع الى مراقبته وتفاوت الابصار في رؤيته وقد قيل انه يرجع الى اختلاف المطالع وهو قول ضعيف جداً فان الله بحكمته نصب الشهر في السماء بقدرته لعموم منفعته لجميع الناس بحيث يجري حسابهم على دخوله وخروجه وليس كالشمس تطلع على قوم وتغيب عن آخرين ، لهذا صار من العسير معرفة الحساب بالشهر الشمسي بخلاف الشهر الهلالي فانه ميسر لكل احد بحيث يعرفون كل شهر باسمه من ابتداء دخوله

الى خروجه يشترك في معرفته العالم والعامي والكاتب والامي والحضري والبدوي حتى انهم ليعرفون كم مضى من الشهر بمعرفة منزلة القمر ، وبذلك تعرف الاشهر الحرم واشهر الحج وشهر الصوم واشهر عدد النساء وغير ذلك من الاحكام التي رتبها الله على الشهر الهلالي .

يقول الله تعالى « ويسأَلونك عن الاهلة قل هي مواقيت للناس والحج » سمي الهلال هلالا لاستهلال الاصوات برويته كما سمي شهراً لاشتهاره ، وكان سبب نزول هذه الآية على ما رواه ابو نعيم عن ابن عباس ان معاذ بن جبل وثعلبة ابن غنم او ابن غنيمة سأَلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالا : « يا رسول الله ما بال الهلال يبدو دقيقاً كالخيط ثم يزيد حتى يعظم فيستوي ويستدير ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان » ، فنزلت هذه الآية « يسأَلونك عن الاهلة قل هي مواقيت للناس والحج » فعدل بهم سبحانه عن الاجابة عن جرم الهلال الى الاخبار بحكمته ففيه الاخبار بالصفات عن الذات كأَنه قال عليكم ان تسأَلوا عن الحكمة والمصلحة التي خلق الله الهلال لها بدون ان تتكلفوا البحث والكشف عن ماهية الهلال ولم يأْمر الله

بشيءٍ الا ومصلحته راجحة ومنفعته واضحة ولم ينه عن شيءٍ الا ومفسدته راجحة ومضرته واضحة .

لهذا رأينا الناس في هذا الزمان وفي هذه الايام لما اشتغلوا بالبحث عن ماهية القمر وتحدثوا بوصول هؤلاء إليه ، احدث لهم هذا الخبر شيئاً من القلق والاضطراب في الافكار والعقائد والفتنة في الدين وطاشت بذلك احلام الاكثرين لظنهم انها هزيمة للدين وانها تقضي بتكذيب نصوص القرآن المبين ونصوص الاحاديث الثابتة عن رسول الله الصادق الأمين الى غير ذلك مما يتلقونه من مفتريات الملحدين وكان من واجب المسلم عند سماع هذا الهذيان هو التثبت والاطمئنان وعدم تزعزع الايمان لاعتقاد انهم لم يأتوا بما يناقض القرآن وقد مدح الله في كتابه اهل الاستقامة والثبات والله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات .

واكثر الناس ينقدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة لعدم رزانته واستقامته وعدم علمه ومعرفته بأحكام الرب وقدرته .

وما يشعرني ان تسلط هؤلاء على الصعود الى القمر انه جرى بطريق القضاء والقدر ليمتحن الله به من يثبت على

ايمانه ودينه ، ممن ينقلب على عقبيه ، كما جرت الفتنة زمن النبي صلى الله عليه وسلم في تحويل القبلة فقال السفهاء من الناس « ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ، اذاً صلاتهم السابقة فاسدة وكيف اقروا عليها وهي باطلة » ، فهلك في هذه الفتنة من هلك ، وكذلك هزيمتهم يوم احد حين قالوا : لو كانوا على الحق ما هزموا وكذلك الفتنة بموت النبي صلى الله عليه وسلم ، حيث قالوا لو كان رسولا لم يمت ، فارتدت العرب من اجل فشو هذا الخبر .

غير ان هذه الفتن بمثابة الغيم الذي يخيم على القلوب ويحول بين القلوب وبين رؤية الأمر على حقيقته وسرعان ما ينجلي هذا الغيم وينقشع لأن الحق ابلج والباطل رجرج .

ولله در الحـادثات فإنهـا صدى الجبان وصيقل الاحرار

فهذا الخبر في وصول هؤلاء الى القمـر حاصله خبر شخص عن فعل نفسه بما يقتضي مدحه ونجاحه في مهمة عمله سواء كان صادقاً او كاذباً ، فضجت بخبره الاصوات وتجاوبت به الاذاعات حتى صار كالخبر اليقين في نفوس الاكثرين .

ونحن بكلامنا هذا لا ننفي وصولهم إليه ولا نثبته

اذ ليس من الأَمر المستحيل وقوعه عند توفر الاسباب التي تؤهلهم الى وصوله وانما غايته اننا نستبعد امكانيته والاستبعاد للشيء لا ينفي وقوعه بالكلية ، كما ان عدم العلم بالشيء ليس علماً بعدمه وكل شيءٍ مرهون بيقينه ، ومن طبيعة الانسان انه اذا جهل شيئاً ولم يحط بعلمه ولم يقبله عقله فانه يسرع بتكذيبه وذلك لا يغنيه من الحق شيئاً ، فلو تحدث متحدث قبل اليوم ان اهل المشرق يتخاطبون مع اهل المغرب وان من في بلدان اوروبا يتكلم مع من في نجد او الحجاز بحيث يكلم احدهما صاحبه بصوت جلي غير خفي وبينهما المهامــه الساحقــة والجبــال الشاهقة والبحار الواسعة والسحب المضطربة والاهوية المتقصفة كل هذه لم تعد حائلة دون سماع احدهما لخطاب الآخر فلو تحدث متحدث بذلك قبل وقوعه وقبل وقوف جميع الناس على حقيقته لما صدق به احد لاستبعادهم لإمكانيته ولن تسع عقولهم قبوله .

فنحن لا نكابر في انكار ما ادركه هؤلاء من علم الكون وما اكتشفوه من الاسرار والآيات وما سيكتشفونه فيما هو آت من كل ما يؤهلهم الى الوصول الى الغايات الداخلة تحت حدود مقدرتهم .

فقد رأى الناس ما صنعوه من الطائرات الهوائية من تجارية وحربية حيث تحلق في الأَجواء حتى تتجاوز محيط الهواء وغواصاتهم البحرية تغوص في قعر البحار بحيث يعلوها بمن فيها الماء والامواج ويتخاطبون من اصقاع البقاع وحسبك ما في الكهرباء من الاسرار والمنافع الكبار ، كل هــذه من الحقائق التي لا مجال للشك فيها خلق الله موادها يوم خلق السموات والارض واودعها في مظانها الى وقت حاجة الناس لها ، والمكتشفون يعترفون بأَن ما خفي عليهم من اسرار الكون اكثر مما يعرفون وانهم كلما اوغلوا في الكشف عن شيءٍ تبين لهم من جهلهم ما لم يكونوا يحتسبون وما احسن ما قيل :

كلمــا أَدبني الدهـــــر — أَراني نقـــص عقـــلي
وكلما ازددت علماً بعلمي — زادني علمــاً بجهــلي*

اذا ثبت هذا فان من جملة ما صنعوه لهذا الغرض أَي لغرض الوصول الى القمر هي الآلة المسماة عندهم بالمركبة الفضائية وهي بزعمهم اسبق من سهم الرامي حيث زعموا بأَنها تقطع في الساعة الواحدة مسافة من العلو تقدر بأَربعين الف كيلومتر (٤٠٫٠٠٠ كم) وقد مكثوا في صعودهم أَياماً

* البيتان للامام الشافعي .

ولياليا قيل اربعة ايام بلياليها في حالة الصعود وكانوا قبل ذلك بعشر سنين وهم يقومون ويقعدون ويبثون التجارب على اثر التجارب لمحاولة الوصول الى ما تحصلوا عليه الى ان نجحوا في مهمة عملهم بزعمهم .

والقمر هو ادنى الاجرام العلوية مما يلي الأَرض فهو يضيء على أَهل الأَرض من جهته التي تلي الأَرض كما قيل من انه يضيء على اهل السماء من جهته التي تلي السماء والله اعلم ، يقول الله «أَلم ترو كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً» .

والقمر هو مستقل في فلكه بنفسه غير مغروز في السماء حسبما يتوهمه بعض الناس وإنما بينه وبين السماء فضاء امسكه الرب بقدرته الذي يمسك السموات والأَرض ان تزولا ولإن زالتا ان امسكهما من احد من بعده .

فمتى كان الأَمر بهذه الصفة وان القمر هو ادنى الاجرام العلوية مما يلي الأَرض وليس عندنا ما يقتضي ان العلم به والوصول إليه انه من علم الغيب الذي لا يحيط به احد ، وقد استخدموا هذا المركب الفضائي الذي يسبق سهم الرامي والذي مكث في الصعود إليه اياماً وليالي ، فاذاً لن نستبعد

وصولهم إليه بعد استعمالهم لهذه الأَسباب التي تؤهلهم من وصولهم الى مقصدهم وقد ذكر الله الأَسباب وذكر النجاح فيها في اربع آيات متواليات فقال « ويسأَلونك عن ذي القرنين قل سأَتلوا عليكم منه ذكراً ، انا مكنا له في الأَرض وآتيناه من كل شيءٍ سبباً ، فاتبع سبباً » وفي الآية الثالثة « ثم اتبع سبباً » وفي الآية الرابعة « ثم اتبع سبباً » فذكر الله عن ذي القرنين من اتباعه للأَسباب والوسائل التي تمكن بها من السيادة على جميع الأَرض واهلها ، قال ابن عباس « آتيناه من كل شيءٍ سبباً » .

أي من كل شيءٍ علماً يتسبب به الى ما يريد لأَن السبب في اللغة هو كل شيءٍ يتوصل به الى غيره ، فالاسلام دين العلم والعقل والفكر والحكمة ، يأْمر باستخدام الأَسباب والاحتفال بها ، كما قيل :

ما انت بالسبب الضعيف وانما
نجح الامور بقوة الأَسباب

ومن طبيعة النفوس التطلع الى كل مستور عنها من كل ما تظنه في متناولها او انه مما ستدركه بوسائل عملها حتى ولو كان عندها ما يغنيها ويكفيها ، كما قيل :

لا يشبع النفس شيء حين تحرزه
ولا يزال لهـا في غـيره وطـر
ولا تزال وان كانت لهـا سـعة
لها الى الشيء لم تظفر به نظـر

فان قيل من أَين لكم ان القمر ادنى الأَجرام العلوية وانه مستقل في فلكه وان بينه وبين السماء فضاء ، والله يقول « تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً » .

فالجواب : ان السماء تطلق في القرآن ويراد بها ما علا وارتفع ومنه قوله « وانزل من السماء ماءً فأَخرج به من الثمرات رزقاً لكم » ومعلوم أَن المطر انما ينزل من السحاب لا من السماء وقال « وضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها في السماء » وهذه الشجرة هي النخلة ، ويطلق ويراد بها السموات العلى وهي السقف المرفوع فالله جعل في السماء بروجاً أَي نجوماً وجعل فيها سراجاً وهي الشمس ، وجعل فيها قمراً منيراً وليست الشمس والقمر والنجوم كلها في فلك واحد وانما هي متباينة المنازل فكل واحد منها يسير في فلكه المرسوم له بقدرة الله وحكمته .

وقد اتفق أَرباب الهيئة من المتقدمين وكذلك علماء الفلك من المتأَخرين على أَن القمر هو أَدنى الاجرام العلوية مما يلي الأَرض وان بينه وبين السماء فضاء واسع ادركوا ذلك بوسائل علمهم الدقيقة وبكشوفهم ومراصدهم التي تقرب لهم البعيد وترسمه على صفته فصار عندهم بمثابة العلم اليقيني الذي يدرك بالمشاهدة والحس حتى لم يختلف فيه اثنان منهم ولأَجل رجحان ظنهم في ان وصوله في استطاعتهم عملوا عملهم في الصعود إليه سواء قلنا انهم وصلوا او فشلوا ولا يلزم ان نقول في كل ما نقلوه لنا انه باطل لا حقيقة له إلا إذا كان مصادماً لنص صريح من الكتاب والسنة . فقد كان شيخ الاسلام ابن تيمية وابن القيم وابن حزم وابن الجوزي يستدلون من اقوال اهل الهيئة ما يرونه موافقاً للحق ولهذا قال شيخ الاسلام ابن تيمية : « ان علم الهيئة الذي هو أَعظم علومهم الرياضية العقلية هو العلم بالأَفلاك وحركاتها فالحس لا يرى إلا حركة الأَجسام المعينة فيرى الشمس تتحرك والقمر يتحرك والكواكب تتحرك ، هذا الذي يعلم بالحس وأَما كون بعض الأَفلاك فوق بعض فقد علموه بكسوف الأَعلى الأَسفل ، فلما رأَوا القمر يكسف سائر الأَفلاك استدلوا بذلك على أَنه تحت الجميع - قال - فالعلم

بقدر حركاتها وكسوف بعضها البعض ونحو ذلك مداره على الأَرصاد » انتهى . وقد نقل ابن القيم في مفتاح دار السعادة عن ارباب الهيئة في شأْن الشمس والقمر والنجوم ما حاصله ، قال « اتفق ارباب الهيئة على ان الشمس بقدر الأَرض مائة مرة ونيفاً وستين مرة وان الكواكب التي نراها اصغرها بقدر الأَرض وبهذا يعرف ارتفاعها وبعدها » وقال « انت ترى الكوكب كأَنه لا يسير وهو من اول جزء من طلوعه الى تمام طلوعه يكون فلكه قد قطع بقدر مسافة الأَرض مائة مرة وذلك بقدر لحظة واحدة » انتهى .

فالعلم بهذا مشهور عند المتقدمين كما ان ارباب الفلك يحققونه الان ولهذا قيل :

والنجم تستصغر الأَبصار رؤيته
والذنب للطرف لا للنجم في الصغر *

وقد قال شيخ الاسلام ابن تيمية أَيضاً « ان ما علم بالحساب وطريق الفلك علماً صحيحاً فانه لا ينافي ما جاءَ به السمع أَي الكتاب والسنة كما ان العلوم السمعية الصحيحة لا تنافي معقولا صحيحاً وقد اشكل على كثير من الناس حيث يرون ان ما يقال انه معلوم بالعقل انه مخالف لما يقال انه معلوم

* البيت لأبي العلاء المعري .

بالسمع وأَوجب ذلك ان كذبت طائفة بما لم تحط بعلمه حتى آل الأَمر بقوم ان تكلموا في معارضة الفلاسفة في الأَفلاك بكلام ليس معهم فيه حجة لا من شرع ولا من عقل وظنوا ان ذلك من نصر الشريعة وكان ما انكروه معلوماً بالأَدلة الشرعية وصار ما فعلوه هو مما جرأَ الملحدون على الطعن في الدين وعلمائه . فهؤلاء لا الحق نصروا ولا الباطل كسروا » انتهى كلامه رحمه الله .

إذا ثبت هذا فإن لفظ العلوم الرياضية يستعمل في ثلاثة أَنواع أَحدها رياضة الأَبدان بالحركة والمشي والثاني رياضة النفوس بالأَخلاق الحسنة المعتدلة والآداب المحمودة والثالث رياضة الأَذهان بمعرفة دقيق العلم والبحث عن الامور الغامضة وهذا هو المراد هنا .

واما استدلال بعض الناس بقوله تعالى « يا معشر الجن والإنس ان استطعتم ان تنفذوا من اقطار السموات والأَرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان » ويزعمون أَن السلطان المذكور في هذه الاية هو العلم وانهم وصلوا به الى السماء ، فهذا الاستدلال باطل قطعاً ولا يمت للمعنى المراد من الاية بصلة لا بطريق المنطوق ولا المفهوم وانما حقيقته تحريف للكلم

عن مواضعه فان النفوذ في اللغة هو جواز الشيء عن الشيء والخلوص منه يقال نفذ السهم الرمية اذا خرقها وخرج من الجانب الآخر ويقال نفذ الرجل القوم اذا مشى وسطهم ونفذهم جازهم وتخلفهم ، قاله في القاموس .

فنفوذ اقطار السموات هو مثل نفوذ النبي صلى الله عليه وسلم لها ليلة الاسراء حينما تجاوزها من سماء الى سماء في صحبة جبريل عليه السلام ، يستأْذن له جبريل عند كل سماء فيقولون له من انت فيقول انا جبريل فيقولون من معك فيقول معي محمد فيقولون أأُرسل إليه فيقول نعم فيقولون مرحباً به فنعم المجيءُ جاء ثم يصعد الى السماء الثانية ثم الثالثة حتى انتهى الى السابعة ، فهذا هو حقيقة النفوذ لأَقطار السموات حقيقة واما معنى صعود هؤلاء فانه بمثابة صعود الطائرة على السواء وهم لم يصلوا في صعودهم الى السماء وانما وصلوا بزعمهم الى سطح القمر ، والقمر شيء والسماء شيء آخر وما اشده من بأْس واعظمه من مكر « وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وان كان مكرهم لتزول منه الجبال » وللمفسرين في الآية معنيان احدهما ان هذا الخطاب واقع على الجن والانس في حالة

الدنيا وذلك حينما يكور بالشمس ويخسف بالقمر وتنزل الملائكة من السماء فيفزع الجن الى الانس ويحاولون الفرار والهرب من هذا الفزع ولات حين مفر والقول الثاني انه خطاب لهم في الآخرة وذلك حين يأمر الله بحشر عصاة الجن والانس ويقال لهم « يا معشر الجن والإنس ان استطعتم ان تنفـــــــذوا من اقطـــــــار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بســــــلطان » وهــذا القول هو اقرب للصواب يدل له الآية التي بعده وهي قوله « يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران » فان ارسال النار انما يقع في الآخرة ، والسلطان قيل العذر وقيل البينة وقيل الحجة ، وقد اخبر الله عن الجن انهم قالوا « وانا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً » فهؤلاء الجن صعدوا الى السماء فلمسوها لكنهم لم ينفذوا من اقطارها لأنهم وجدوها ملئت حرساً شديداً وشهباً .

وقد حاول الصعود الى السماء قبل هؤلاء اناس كما روي عن ابي اسحاق « ان جباراً من الجبابرة قيل انه النمرود بن كنعان وهو الذي حاج ابراهيم في ربه انه قال لا انتهي حتى اعلم من في السموات فعمد الى فراخ نسور فأمر ان تطعم اللحم حتى اذا اشتدت وعضلت أي غلظت

فأَمر ان يتخذ تابوت يسع رجلين وان يجعل فيه عصاً في رأْسها لحم شديد حمرته وان يستوثق من ارجل النسور وتشد الى قوائم التابوت ثم جوع النسور وجلس هو وصاحب له في التابوت واثار النسور فلما رأَت اللحم طلبته من فوقها فجعلت ترفع التابوت بقوتها وبشدة نهمتها الى اللحم حتى بلغت به ما شاء الله فقال الجبار لصاحبه افتح الباب فانظر ما ترى فقال أَرىِ الجبال كأَنها ذباب فقال اغلق الباب ثم صعدت بالتابوت ما شاء الله أَن تصعد فقال الجبار لصاحبه افتح الباب فانظر ما ترى فقال ما أَرى إلا السماء وما تزداد منا إلا بعداً ، فقال نكس العصى فنكسها من تحت فانقضت النسور بالنزول تطلب اللحم من اسفل حتى وقع التابوت بمن فيه على الأَرض » انتهى ، فهذا يحاول المحال من صعوده الى السماء وهي السقف المرفوع والسقف المحفوظ .

كما قال الله تعالى « وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون » أَي محفوظاً بالملائكة التي تحرسها

والمقصود ان هذا الخبر في وصول هؤلاء الى القمر هو مما يزيد المؤمن ايماناً ويقيناً في معرفة هذا النظام السماوي القائم بقدرة الله وحكمته وعموم منفعته لجميع خلقه .

فأنت ترى هذا القمر المضيئ بنوره الساطع مع هذا البعد الشاسع والفضاء الواسع حتى انه ليحسبه الرائي وقت ابداره كسراج وهاج في بيت احدهم مع ارتفاع ذاته الارتفاع الهائل الذي لا يخطر ببال اكثر الناس والذي مكث هذا المركب الفضائي اياماً ولياليا وهو يصعد بالسرعة الزائدة التي قدروا سرعته في الساعة الواحدة بأربعين الفاً من الكيلومترات (٤٠٫٠٠٠ كم) وهل هذا البعد الشاسع مع دنو نوره الساطع إلا آية باهرة سواء قلنا ان نوره مقتبس من الشمس او من ذاته بنفسه فتبارك الله احسن الخالقين .

وأمر آخر وهو اظهاره المعجزة التي اخبر بها النبي صلى الله عليه وسلم ، كما روى الترمذي من حديث ابي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال « بين السماء الى الأرض مسافة خمسمائة عام » والمقادير المذكورة في مثل هذا الحديث تحمل على دبيب الأقدام ومسير الجمال بالأثقال وهذه المسافة الساحقة التي قطعوها هي من الأرض الى القمر لا غير ومن المحتمل ان يكون من القمر الى السماء ابعد من هذا وبذلك تتضح المعجزة التي اخبر بها النبي صلى الله عليه وسلم في بعد مسافة ما بين السماء والأرض ، فدعوى بعض الناس ان القمر آية من آيات الله لا يدان لأحد بوصوله.

جوابه : نعم ان القمر آية من آيات الله لا يستطيع احد تغييره عن صفته التي خلقه الله عليها ولا ان يخلقوا مثل خلقه وكونه آية لا يمنع من وصوله كما ان السحاب آية من آيات الله كما قال تعالى « ومن آياته السحاب المسخر بين السماء والأَرض » ، وقد مكث اكثر الناس زماناً وهم لا يظنون ان احداً من خلق الله يصل الى منتهى السحاب من اجل انه آية من آيات الله الى ان حدثت الطائرات الجوية التي تخترق السحاب حتى ترتفع عنه ويمطر المطر من تحتها .

فقل لهؤلاء المرتابين من خلق هذا القمر وأَودعه هذا النور الساطع مع البعد الشاسع غير الله عز وجل؟ ومن وضعه بهذا الموضع العالي اللائق به غير الله عز وجل؟ ومن امسكه بقدرته بدون عمد نراها غير الله عز وجل؟ ومن جعله يتنقل من حالة الصغر الى حالة الكبر ومن منزلة الى منزلة غير الله عز وجل؟ ومن جعله يضيء على جميع الناس في مشارق الأَرض ومغاربها غير الله عز وجل؟ « هذا خلق الله فأَروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين » ، يقول الله «وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون ، والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغي

لها ان تدرك القمر ولا الليـــل سابق النهار وكل في فلك يسبحون » .

وقد دعا الله عباده الى النظر والاعتبار في مخلوقاته ليزدادوا بذلك ايماناً ويقيناً « ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولي الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هـــذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » ، « قل انظروا ماذا في السموات والارض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » نعم انها لا تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ، فالآيات والعبر والتفكر المعتبر انما تستفيد به النفوس الخيرة المستعدة لقبول الحق والمتوجهة الى طلبه واتباعه ، اما النفوس الشريرة كالطبيعيين الذين ينسبون كل شيءٍ للطبيعة وينسبون آيات الله ومخلوقاته في أَرضه وسماواته الى الطبيعة ويسميهم العلماء عبّاد الطبيعة فإن الآيات والعبر لا تزيدهم إلا نفوراً واستكباراً وإلا جحوداً وعناداً « وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين » .

حكمة صــلاة الكسوف

ومما يلحق بهذا الكلام ويجب التنبيه عليه للخاص والعام ما ينسب عن بعض سفهاء الاحلام وضعفاء الأَديان من طعنهم في صلاة الكسوف الثابتة مشروعيتها بالدلائل القطعية من دين الاسلام .

وذلك ان صلاة الكسوف هي نوع من الصلوات وهي من آكد نوافل العبادات شرعت الجماعة لها واجمع العلماء على مشروعيتها على اختلاف بينهم هل تصلى جماعة او فرادى وقد صلاها النبي صلى الله عليه وسلم جماعة فمن انكر مشروعيتها فهو كافر لأَن مسنونيتها معلومة بالدلائل القطعية من دين الاسلام .

انخسفت الشمس على عهد رسول الله حين مات ابنه ابراهيم فقال الناس انخسفت الشمس لموت ابراهيم فقال رسول الله « ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت احد ولا لحياته فاذا رأَيتم ذلك فصلوا وادعوا حتى ينكشف ما بكم » .

فهذه الصلاة يستحب فعلها عند وجود سببها كما تصلى صلاة العيدين عند وجود سببهما وكما تصلى الاستسقاء

لطلب السقيا وكما تصلى الاستخارة لطلب خير الأَمرين لأَن العبادة هي ما أَمر به الشارع حكماً من غير اطراد عرفي ولا اقتضاء عقلي ، قال الله « ما اتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .

فالذي أَمر بصلاة الكسوف عند وجود سببها هو الذي أَمرنا ان نصلي الفجر عند طلوع الفجر وأَمرنا ان نصلي المغرب بعد أَن تغرب الشمس اذ الكل لله عز وجل ، الا ان هاتين فريضة وتلك نافلة وقد استنبط العلماء مشروعيتها من قوله تعالى « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن ان كنتم اياه تعبدون فان استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأَمون .

ان معرفة الناس لسبب كسوف الشمس والقمر وان الفلكيين وغيرهم يرون ان السبب في كسوف الشمس هو توسط القمر بين الأَرض والشمس وان خسوف القمر هو حيلولة الأَرض بين القمر والشمس لأَن الكسوف للقمر عبارة عن ذهاب ضوئه وفلكه دون فلك الشمس والأَرض كرة فاذا وقع القمر في ظل الأَرض انقطع عنه نور الشمس

كسحابة تمر تحته الى ان يتجاوزها من الجانب الآخر ، فهذا ملخص كلام الفلكيين في سبب الكسوف والخسوف[1] ، وقد عمموا التعليم بذلك في سائر المدارس العربية .

فمعرفة الناس لهذا السبب اضعف في نفوسهم شيئاً من حكمته وحكمة التخويف به والصلاة له والسبب شيء وامتثال الأَمر عند وجوده شيء آخر ، وذلك ان الله سبحانه يحب من عباده بأَن يكونوا منتبهين دائماً لعبادته والعمل للقاءه والخوف من عقابه سيما عند رؤية ما يذكرهم بالساعة واهوال القيامة من كسوف وخسوف حتى لا تستولي الغفلة واللهو عليهم فيؤخذوا على غرة وغفلة يقول الله « اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ما يأْتيهم من ذكر من ربهم محدث الا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم » .

فالكسوف يذكر بقيام الساعة واهوال الآخرة « وما يدريك لعل الساعة قريب ، يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون انها الحق الا ان الذين

(١) المحققون من العلماء يقولون بهذا السبب ويقولون بجواز معرفة وقت الكسوف قبل وقوعه لكونه مما يدرك بالحساب كما ذكر ذلك شيخ الاسلام وابن القيم وابن حزم وغيرهم وكل ذلك بقضاء الله وقدره .

يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد » فالكسوف الاكبر للشمس والقمر يأتي على قرب ما نشاهده من الكسوف في الدنيا لأن اول ما يبدأ به من اهوال الساعة هو خسوف الشمس والقمر ثم تتناثر النجوم لأن الله سبحانه اذا تم قضاءه بفناء الدنيا واراد ان يخلي الناس عنها وان ينقلهم الى دار اخرى « ليجزي فيها من اساؤوا بما عملوا ويجزي الذين احسنوا بالحسنى » فعند ذلك يخسف بالشمس والقمر ويزيل النجوم فتتناثر شبه من يريد هدم بيته فيزيل عنه سائر الانوار والتجميلات فيفك المصابيح ويزيل المراوح والمكيفات وسائر ما ينقل من التجميلات ثم يدك اعلاه على اسفله ، يقول الله « فاذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر يقول الانسان يومئذ أين المفر ، كلا لا وزر الى ربك يومئذ المستقر ، ينبأ الانسان يومئذ بما قدم وأخر » لهذا حث النبي صلى الله عليه وسلم على الاستعداد لهذا الأمر عند ذكره وقبل وقوعه وذلك بفعل الصلاة المشروعة له التي هي من آكد التطوعات كما أمر بالصدقات وافعال الخيرات وقال « بادروا بالأعمال سبعاً ، هل تنتظرون الا فقراً منسياً او غناً مطغياً او هرماً مفنداً او موتاً مجهزاً او الدجال فشر غائب ينتظر او الساعة فالساعة ادهى وأمر .

نسأل الله ان يعمنا بعفوه وان يسبغ علينا واسع فضله وان يستعملنا في طاعته وان يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

حرر في اليوم الثاني عشر من شهر جمادى الآخر عام ١٣٨٩ هجرية .
وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المؤلف
الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود
رئيس المحاكم الشرعية بقطر